

شجرة الفكاهة لابن شهيد

- دراسة فنية -

أ. مالكي سميرة

أستاذة الأدب الأندلسي بجامعة السانيا - وهران - الجزائر

قبل أن نبدأ بالحديث عن رسالة التوابع والزوابع أو شجرة الفكاهة ودراساتها دراسة فنية، نرى لزوما علينا أن نقدّم نبذة مقتضبة عن سيرة ابن شهيد الأندلسي فنقول : هو¹ أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن مروان بن أحمد بن عبد الملك من شهيد، ثم أشجع وهم بطن من غطفان، ويتحدّر من سلالة الوضّاح بن رزاح الذي كان مع الضحّاك بن قيس الفهري يوم مرج راهط.

ولد أبو عامر بن شهيد بقرطبة سنة 382 هجرية في خلافة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، له من التصانيف البديعة : " كشف الدرك وإيضاح الشك " و " حانوت عطار " .

أما شعره : فقد جمعه المستشرق " شارل بلا " ثم المستشرق يعقوب زكي "، توفي بقرطبة سنة 426 هجرية ودفن بجانب صديقه أبي الوليد الزجالي بوصية منه رسالة التوابع والزوابع هي رحلة خيالية في عالم الجن قام بها أبو عامر في صحبه تابعه " زهير بن نمير " الذي يلهمه أشعاره، وقد التقى خلال هذه الرحلة بشياطين الشعراء والكتاب من عمالقة الأدب العربي القديم، وانتزع منهم اعترافات بتفوقه في الكتابة وفن القريض، كما اتصل بنقاد

¹ ترجمة ابن شهيد في :

* وفيات الأعيان، لابن خلكان، ت/ إحسان عباس، دار صادر، 1968، 1: 116.

* جذوة المقتبس، للحميدي، الدار المصرية للتأليف والترجمة: 133

* بغية الملتبس، للضببي، ت/ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، 1:

238

* الذخيرة لابن بسام، ت/ إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، 1: 191.

* المغرب لابن سعيد، ت/ شوقي ضيف، ط3، دار المعارف، 1: 178.

* مطمح الأنفس، للفتح بن خاقان، ت / محمد علي شوايكة، ط1، بيروت 1983: 189 .

* نفح الطيب، للمقري، ت/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1: 156

* تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، د إحسان عباس، دار الثقافة بيروت ط 2، 1969 :

270

* رسالة التوابع والزوابع، ت/ بطرس البستاني، دار صادر 1996 : 7

الجن في نواديهم، بل وقابل أدباء من حيوانهم واستمع لأبيات من الغزل في مباراة أدبية طريفة .

إذا هذه القصة تنتمي إلى جنس القصص الذي يتجاوز عالم الحس إلى ما وراءه، متخذاً مغامراته في عالم خيالي مسحور، مبدعا بناءه الفني من غرائب التصورات وعجائب المشاهدات .

ولقد ألفها ليرد على خصومه وحساده من أدباء الأندلس الذين جحدوا قدره، ولما ضاق به عالم الواقع هرب إلى عالم الخيال، وإلى ديار الجن، ومنازل التوابع¹ وهناك استطاع أن ينتزع لنفسه شهادات بتفوقه واعترافات بامتيازته من أساطين الشعر، وجهابذة الكتاب . وقد أثارت هذه الرحلة تساؤلات الباحثين، من أين استمد ابن شهيد هذه الرسالة ؟ ومضوا يلتمسون أوجه التأثير والتأثر فيها، خاصة بينها وبين رسالة الغفران لأبي العلاء المعري للشبه بين الرسالتين من حيث الجو العام الذي تدوران فيه.

فذهب الدكتور أحمد ضيف إلي القول : "ولعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء في ذلك لأنه أدرك عصره، ولأن شهرة أبي العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب، وكان أهل الأندلس يقلدون المشرق في كل شيء"²

إذا هو يشير إلي أن ابن شهيد هو المتأثر، والحقيقة أن الدكتور أحمد ضيف لم يصدر رأيه هذا بعد تحقيق دقيق للقضية.

و من الذين حاولوا تحقيق³ تاريخ الرسالتين الدكتور زكي مبارك حيث قال : " وقد رأينا أن نحقق هذه المسألة فبحثنا طويلا عن التاريخ الذي وضعت فيه رسالة التوابع والزوابع فلم نهتد، ولكننا رأينا في الرسالة نفسها ما يدل على أنه وضعها وهو كهل فقد جاء على لسانه ما يشير إلى أن من إخوانه من بلغ الإمارة وانتهى إلى الوزارة؛ ولكن لا ينبغي أن نخدعنا هذه التعابير، فهناك نص يدل على أنه وضعها وهو شاب، فقد حدثنا في التوابع والزوابع أن الجن قالوا له : بلغنا أنك لا تُجازي في أبناء جنسك ولا يُمل في الطعن عليك والاعتراض لك فمن أشدهم عليك ... وقد أجاب : جاران دارهما

¹ - التوابع : جمع تابع وه والرئي من الجن، والجنية تتبع الإنسان، وتتبع الرجل بمعنى تحيه، والجنى يتبع المرأة أي يحبها، ينظر لسان العرب : مادة (تتبع) - دارصادر، بيروت، 7 : 29.

² - بلاغة العرب في الأندلس، أحمد ضيف، ط القاهرة، 1924م : 48 .

³ - ينظر الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثير، رجب البيومي، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1980م : 177، 178

صقّب، وثالث نابته نوب، فامتطى ظهر النوى وانتضى على لسانه عند المستعين؛ وهذا يشعر بأنه كتب هذه الرسالة في عهد المستعين. وقد بويح بقرطبة سنة 400 هجرية ثم جددت سنة 403 هجرية ومات مقتولا سنة 407 هجرية، ومن هنا نرجح أن رسالة التوابع والزوابع كتبت بين 403 هجرية، و سنة 407 هجرية.

هذا جانب من المسألة أما الجانب الآخر فهو التاريخ الذي وضعت فيه رسالة الغفران، وإذا كانت الرسالة جوابا على رسالة ابن القارح فقد عدنا إلى رسالة ابن القارح فانتبهنا إلى قوله: " وكيف أشكو من قاتني وعالني سبعين سنة" فعرفنا أنه وضعها بعد أن جاوز السبعين ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة 351 هجرية فإذا أضغنا 70 وجدناه كتب رسالته حوالي سنة 421 هجرية وتكون النتيجة أن رسالة الغفران كتبت حوالي 422 هجرية ... ونتيجة هذا التحقيق أن رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوابع والزوابع بنحو عشرين سنة، وصار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذي قلد ابن شهيد¹.

وذهب بطرس البستاني إلى أن التوابع والزوابع تقدمت "الغفران" بتسع سنوات أو أقل فقد كتبها أبو عامر في قوة شبابه، بعدما نيف على الثلاثين، واستند في ذلك إلى بعض الإشارات التي وردت في الرسالة نحو قوله " أنه أوتي الحكم صبيا " ثم حديثه مع بغلة أبي عيسى عندما قالت له " ما أبقت الأيام منك ؟ قلت كما ترين. قالت شب عمرو عن الطوق... " ويعلق على ذلك الأستاذ بطرس قائلا : " فهذه الإشارات إلى صباه أو إلى شبابه أو إلى مجاوزته سن الحداثة، لا تأذن لنا بأن نجعل رسالة " التوابع والزوابع " وليدة أواخر حياته، لأنها من دلائل فتوته " ² ومن مجمل هذه الآراء نخلص إلى تقدم رسالة ابن شهيد على رسالة أبي العلاء.

¹ - النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، بيروت، 1975م، 1: 318-319

² - البستاني: 74.

تحليل الرسالة :

تبدأ الرسالة بمدخل يتحدث فيه ابن شهيد إلى أبي بكر بن حزم، فيذكر له كيف تعلم ونبض له عرق الفهم، بقليل من المطالعة، ثم ينتقل إلى خبر حبيب له مات، فأخذ في رثائه، فأرتج عليه، وإذا بجني اسمه زهير بن نمير من أشجع¹ يتصور له، ويلقى إليه بتتمة الشعر، رغبة في اصطفاؤه، ثم تحدثا وانعقد بينهما لواء محبة وصداقة، وصار هذا الجن تابعا لابن شهيد .

و يمكن أن نقسم الرسالة إلى مشاهد أو فصول :

المشهد الأول :

في أرض الشعراء، يلتقي فيه بالشعراء على تسلسل تاريخي: صاحب امرئ القيس، وصاحب طرفة، وشيطان قيس بن الخطيم، تابع أبي تمام والبحتري وأبي نواس وأبي الطيب المتنبي ؛ وفي زيارته هذه يساجل الشعراء ويعارضهم ويذكرهم، ويأخذ الإجازة منهم.

المشهد الثاني :

في أرض الكتاب ويسميهم الخطباء، وهم عنده أصحاب الرسائل الديوانية خاصة، لهذا نجده يفرق بين الجاحظ وسهل بن هارون، و نتيين الانحناء العظيم على سهل لأنه كاتب سلاطين بينما الجاحظ مؤلف دواوين مع أن كلا منهما محسن في بابيه، ولكن غاية أبي عامر كانت النوع الأول من الكتاب أمثال سهل بن هارون . ولقد استحدث ابن شهيد بدعة جديدة لم ترد عن العرب بجعله شياطين للكتاب أو الخطباء أسوة بالشعراء فنراه يلتقي بشياطين عند الحميد والجاحظ وبديع الزمان الهمداني وغيرهم، فيحاورهم ويسمعهم ثم ينتزع منهم شهادات الإجازة والتفوق .

المشهد الثالث :

في مجلس أدبي من مجالس الجن، يتدارس فيه بعض القضايا الأدبية التي كانت تشغل باله، ومن أهم تلك القضايا قضية الأخذ والمعارضات عند الشعراء.

¹ - لعله من الطريف أن يجعل أب وعامر تابعه من أشجع ليكون بينهما قرابة ونسب إذ أنه ه وأيضا من قبيلة أشجع العربية.

المشهد الرابع:

فكان مجلساً أدبياً لحيوانات الجن يحكم فيه ابن شهيد بين قطعتين لحمار وبغل عاشقين ثم يتعرف على حيوانات أدركها في عالم الإنس كبغلة أبي عيسى فيحادثها ويناقشها في بعض الأمور، وبهذا تختتم الرسالة أو ما وصلنا منها .

الخصائص الفنية لأسلوب الرسالة :

قسم الكاتب الرسالة إلى مشاهد وفصول في محاولة منه لا يجاد بداية قصصية مشوقة فترى العناية بالسرد والأداء حتى يحكم هذا الإطار .

ولعل أهم مقومات أسلوبه ما نجده فيه من خيال قوامه شيء من الأساطير والخوارق وليس أدل على ذلك من اختيار الميدان الذي دارت فيه الحوادث، وطريقة استدعاء التابعة ؛ كما تحس صدى الصور الأسطورية الخيالية في استدعاء بعض من قابلهم كتابع أبي تمام " فانفلق ماء العين عن وجه فتى كفلقة القمر ..."¹ .

و الوسيلة الفنية الأولى التي اصطنعها أبو عامر هي " الرمز" . فقد أبدع عدة رموز أدبية أضفاها على شعراء قصته وكتابها.

وأول ما ترمز إليه "التوابع والزوابع" بصفة عامة بالنسبة إلى الشعراء والكتاب هو الإلهام مؤكداً أن فنون الأدب من شعر ونثر من عطاء الموهبة، وليست من كسب المعرفة .

ويركز ابن شهيد على هذا المبدأ تركيزاً شديداً، فقد كان خصومه يتهمونه بأنه لم يطل النظر في الكتب ولم يستوعب ما فيها من علم ومعرفة² .

وفي مقدمة هذه الرموز "زهير بن نمير"³ وحسبك أن تعرف أنه من أشجع من الجن، لتدرك أن هذا أبو عامر، وربما كان أهم ما يشير إليه هذا الرمز أن ابن شهيد أديب موهوب مستعد دائماً للإبداع .

¹ - الذخيرة ق/1، م/1: 356 .

والرسالة ت/ البستاني: 98 .

² - الذخيرة ق/1، م/1: 346 .

والرسالة ت/ البستاني : 88

³ - الذخيرة ق/1، م/1: 347 .

والرسالة ت/ البستاني : 89 .

وهذا هو " عنتر بن العجلان" صاحب طرفة، فتى جميل الوجه قد توشح السيف واشتمل عليه كساء خز¹...
يشير بذلك إلى نشأة الشاعر المترفة وإلى إجادته في شعر الفتوى والنجدة.

أما شيطان قيس بن الخطيم، فهو فارس كأنه الأسد على الفرس كأنها العقاب²، يقصد بذلك إجادة الشاعر في وصف الحروب. و"طوق بن مالك" شيطان البحرى، يكنىه "بأبي الطبع"³ مشيراً بذلك إلى أن شعر البحرى من الفن المطبوع وليس من الفن المصنوع الذي يصدر عن تكلف.

و"حارثة بن المفلس" صاحب أبي الطيب، فارس يستوي على متن فرس بيضاء، كأنه قضيب على كثيب، قد أسند قناته إلى عنقه، على رأسه عمامة حمراء، قد أرخى لها عذبة صفراء، ينظر من مقلة شوساء⁴.

يشير أبو عامر بذلك إلى أن أبا الطيب كان يجيد في وصف الحروب، والفرس البيضاء كناية على صراحته ووضوحه، والعمامة الحمراء ترمز إلى أن في أصل طبعه كلفا بالدماء، والعذبة الصفراء ترمز إلى حقه على حكام عصره ورغبته في الانتقام منهم.

و"عتبة بن أرقم" صاحب الجاحظ، شيخ أصلع، جاحظ العين اليمنى على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة⁵.

ونحن نلاحظ أن أبا عامر في هذه الأوصاف يركز على الملامح الشخصية لأبي عثمان دون الإشارة إلى طريقته الفنية في عالم النثر. ولكن من خلال محاورته لعتبة بن أرقم نستطيع أن نلتقط الملامح الفنية لأسلوب الجاحظ من مماثلة وازدواج دون القصد إلى السجع.

¹ - الذ خيرة ق/1، م/1: 250 .

والرسالة ت/ البستاني : 93-95 .

² - الذ خيرة ق/1، م/1: 252 .

والرسالة ت/ البستاني : 96-97 .

³ - الذ خيرة ق/1، م/1: 257 .

والرسالة ت/ البستاني : 102-104 .

⁴ - الذ خيرة ق/1، م/1: 265-267 .

والرسالة ت/ البستاني : 111-114 .

⁵ - الذ خيرة ق/1، م/1: 267-268 .

والرسالة ت/ البستاني : 115-122 .

و" زبدة الحقب" صاحب بديع الزمان، فتى حاد النظرات شديد الثقة بنفسه وبفنه، عظيم الشك في موهبة غيره، لا يعبأ أن يعيب بالآخرين¹.

وقد رمز ابن شهيد باسمه " زبدة الحقب" إلى أن بديع الزمان الهمداني هو خلاصة التصنيع في فن الكتابة.

و" أبو الآداب" صاحب إسحاق بن حمام، فتى سمح الطبع، رضي النفس، شديد التوقير لمشيخة الأندلس، وربما قصد أبو عامر من هذه الأوصاف انعكاسها على أسلوب هذا الكتاب في فن الكتابة². ومن الوسائل الفنية التي استخدمها أبو عامر حوار، ومن ذلك هذا المشهد الذي ضمه مع عتبة بن أرقم تابعة الجاحظ، وأخذا يتحاوران: صاحب الجاحظ: إنك لخطيب وحائك للكلام مجيد، لولا أنك مغرى بالسجع فكلامك نظم لا نثر.

أبو عامر: ليس هذا أعزك الله جهلا مني بأمر السجع، وما في المماثلة والمقابلة من فضل، ولكنني عدت بلدي فرسان الكلام، ودهيت بغباوة أهل الزمان

صاحب الجاحظ: أهذا على تلك المناظر، وكبر تلك المحابر وكمال تلك الطيالس؟

أبو عامر: نعم إنها لحاء الشجر، وليس ثم ثمر ولا عبق.

صاحب الجاحظ: صدقت، إني أراك قد ماثلت معي.

أبو عامر: كما سمعت.

صاحب الجاحظ: فكيف كلامهم بينهم؟

أبو عامر: ليس لسبويه فيه عمل؟ ولا للفرايدي إليه طريق ولا للبيان عليه سمة، إنما هي لكنة أعجمية يؤدون المعاني بها تأدية المجوس والنبط.

صاحب الجاحظ: إنا لله، ذهبت العرب وكلامها. ارمهم يا هذا بسجع الكهان فعسى أن ينفعك عندهم، ويطير لك ذكر فيهم³. وهذا مشهد حوار آخر بين أبي عامر وبين إوزة أدبية.

¹ - الذخيرة ق/1، م/1: 276.

والرسالة ت/ البستاني: 127.

² - الذخيرة ق/1، م/1: 278.

والرسالة ت/ البستاني: 131.

³ - الذخيرة ق/1، م/1: 268-269.

والرسالة ت/ البستاني: 116-117.

الإوزة: أيها الفار المغرور، كيف تحكم في الفروع، وأنت لا تحكم في الأصول ؟

...ثم تقول له: ما الذي تحسن ؟

أبو عامر: ارتجال شعر، واقتضاب خطبة .

الإوزة : لست عن هذا أسألك .

أبو عامر : ولا بغير هذا أجابك .

الإوزة : حكم الجواب أن يقع على أصل السؤال، وأنا إنما أردت بذلك إحسان النحو والغريب.¹

كما كان يهتم بإيجاد قدر كبير من الحوار الداخلي يديره مع نفسه، فلما نقده صاحب الجاحظ بقوله :...كلامك نظم لا نثر " فقلت في نفسي :

قرعك، بالله، بقارعتة وجاءك بمماثلته ... " ²
ولما زجره صاحب عبد الحميد واتهمه باللكنة نراه يستدرك " فقلت في نفسي طبع عبد الحميد ومساقه، ورب الكعبة ! " ³
ومن الوسائل الفنية التي استغلها أبو عامر أيضا أسلوب السخرية والتهكم

فهذا مشهد يعتبر من أفانين السخرية الرفيعة، يمزج فيه بين السرد والحوار، فيقول :

" فتقدمت إلي بغلة شهباء، عليها جلها وبرقعها فقالت :
أما تعرفني أبا عامر ؟

فقلت : لو كان ثمة علامة.

فأماطت لثامها، فإذا بغلة أبي عيسى، والخال على خدها .

فتباكيننا طويلا، وأخذنا في ذكر أيامنا .

فقلت : ما أبقت الأيام منك ؟

قلت : ما ترين.

قالت : شب عمرو عن الطوق، فما فعل الأحبة بعدي ؟

¹ - الذخيرة ق/1، م/1: 299-301.

والرسالة ت/ البستاني : 149-152.

² - الذخيرة ق/1، م/1: 268.

والرسالة ت/ البستاني : 116.

³ - الذخيرة ق/1، م/1: 269.

والرسالة ت/ البستاني : 117.

قلت : شب الغلمان، وشاخ الفتیان، وتكرت الخلان، ومن إخوانك من بلغ الإمارة، وانتهى إلى الوزارة، فتنفست الصعداء وقالت : سقلهم الله سبل العهد، وان حالوا عن العهد، ونسوا أيام الود، بحرمة الأدب إلا ما أقرأتهم السلام . قلت : كما تأمرين ¹.

ولا يخفى أن ابن شهيد كان حاد المزاج في رسالته، لذلك لم تخل فكاهته من شراسة وسخرية بالمعارضين . ومن وسائله الأدبية كذلك استخدامه الأسلوب الطلي الموشى في السرد، والتصوير الرائع في الوصف، وهما هو ذا يصور مشهد إوزة تسبح فيقول :

" كانت في البركة بقربنا إوزة بيضاء شهلاء، في مثل جثمان النعامة، كأنما ذر عليها الكافور، أو لبست غلالة من دمس الحرير، لم أر أخف من حركتها ولا أحسن للماء في ظهرها صبا، تنثى سافقتها، وتكسر حدقتها، فترى الحسن مستعارا منها " ². ثم يوجه إليها الخطاب قائلا :

" أيتها الإوزة الجميلة، العريضة، الطويلة، أحسن جمال حدقتيك واعتدال منكبيك، واستقامة جناحيك، وطول جديك، وصغر رأسك مقابلة الضيف بمثل هذا ؟

فدخلها العجب من كلامي، ثم ترفعت وقد اعترتها خفة شديدة، فمرة سابحة، ومرة طائفة، تنغمس هنا، وتخرج هناك، قد تقبب جناحاها وانتصبت ذناها، وهي تطرب، تطرب السرور، ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها، وعملت بمجدا فيها واستقبلتنا جائية كصدر المركب " ³.

كذلك عنايته الفائقة بتصوير الأخلاق والأشكال، فيصف صاحب الجاحظ (شيخ أصلع) ⁴، وتابع ابن الأفللي (جني اشمط ربعة وارم الأنف، يتظالع في مشيته ...) ¹.

¹ - الذ خيرة ق/1، م/1: 298. والرسالة ت/ البستاني : 149.

² - الذ خيرة ق/1، م/1: 298. والرسالة ت/ البستاني : 149-150.

³ - الذ خيرة ق/1، م/1: 298. والرسالة ت/ البستاني : 150.

⁴ - الذ خيرة ق/1، م/1: 267.

وبعد هذه الجولة الرائعة في أرض الجن مع أبي عامر وصاحبه "زهير بن نمير" نتبين خيال ابن شهيد، وحرصه الشديد أن يجعل للرسالة بعدا مكانيا حين اختار بلاد الجن، وبعدا زمانيا حين تدرج تاريخيا في لقاء الشعراء والكتاب.

المصادر والمراجع :

- الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، رجب البيومي، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1980م
- بغية الملتبس، للضبي، ت/ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، 1
- بلاغة العرب في الأندلس، أحمد ضيف، ط القاهرة، 1924م
- جذوة المقتبس، للحميدي، الدار المصرية للتأليف والترجمة
- الذخيرة لابن بسام، ت/ إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، 1
- رسالة التوابع والزوابع، ت/ بطرس البستاني، دار صادر 1996
- لسان العرب، لابن منظور، دار الصادر، بيروت، 1956م.
- مطمح الأنفس، للفتح بن خاقان، ت / محمد علي شوابكة، ط1، بيروت 1983
- المغرب لابن سعيد، ت/ شوقي ضيف، ط3، دار المعارف، 1
- النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، بيروت، 1975م، 1
- نفح الطيب، للمقري، ت/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1
- وفيات الأعيان، لابن خلكان، ت/ إحسان عباس، دار صادر، 1968، 1

والرسالة ت/ البستاني : 115.

¹ - الذخيرة ق/1، م/1: 276.

والرسالة ت/ البستاني : 124.